إمام الصمود والتحدي

وقف أحمد بن حنبل في وجه دولة بأكملها، وعصى إرادة الحاكم فيها، ورد رأيه وحكمه، وتمرد على سلطانه وغروره، وتحدى قوته وجبروته، حينما قرر ما يُفسد العقيدة، ويخالف ما أنزل الله، لقد عصى ولي الأمر وخليفة المسلمين، الذي تدين له المشارق والمغارب، لأنه قال في القرآن بما ليس فيه، وتحمل ﷺ في سبيل ذلك أعظم البلاء، وأجل المصاب.. ولم يهرب، ولم يعتكف، ولم يقل: ولي الأمر وتجب طاعته، ولم ينعزل بحجة أنها أيام فتن، لم يفعل الإمام العظيم شيئًا من هذه الصور، التي هي في حقيقتها جبن كبير، وفهم معوج، إنه لم يفر من مسؤوليته التي يدرك أبعادها إن كان من الناكثين المهزومين والخانعين.. فالدنيا كلها تنتظر رأيه، وتدون قوله، وتدين بفتواه، ولو أنه مال وانحرف واستكان وضعف، لفسدت عقيدة الناس وتسبب في إضلالهم.

لقد كان المأمون بعد أن تولى خلافة المسلمين يميل إلى المعتزلة ويعتنق عقيدتهم، ويقول بآرائهم الفاسدة في خلق القرآن، وأوعز له كبراؤهم إلزام الناس بها، فكتب إلى واليه على بغداد أن يجمع القضاة والعلماء، ويلزمهم بالقول بخلق القرآن، ومن خالف ذلك حبسه أو عزله أو قتله.. وبدأت الفتنة واشتعل الصراع وتتابعت موجات الظلم والبطش، فحُبس وعذب وقتل خلائقُ لا يحصون.. وكان الأمام أحمد من الثابتين الصامدين في هذه الفتنة، حين واجه السلطان برأيه الحر وحجته الدامغة ولم يرهب سطوته أو بطشه، ولم يطعه فيما يدعو من فساد وضلال، ولم يقل طاعة ولي الأمر واجبه، وإنما كان إيمانه الكبير يُملي عليه طاعة واحدة، وهي طاعة الحق فوق كل طاعة.!

أمر المأمون أن يقبض على ابن حنبل، وأن يرسل إليه في طرسوس، وجاءه رسوله في الطريق ليرهبه، ويمارس عليه عملية تحطيم معنوي، فقال له: إن الخليفة قد أعد لك سيفًا لم يقتل به أحدًا، لكن أحمد وهو إمام الثابتين المؤمنين ما كان له أن يخيفه مثل هذا الوهن، فرد على القائل بقوله: أسأل الله أن يكفيني مؤونته، فدعا الله عزوجل في أثناء الطريق أن لا يريه وجه المأمون ولا يجتمع به، فاستجاب الله عزوجل دعاءه، وما هي إلا مدة قصيرة، وإذا بالخبر يصل بوفاة المأمون قبل أن يصل إليه الإمام أحمد، فأعيد إلى السجن مرة أخرى.. وتولى المعتصم الخلافة، وقد أوصاه المأمون قبل موته بتقريب المعتزلة، والاستمرار بالقول بخلق القرآن وأخذ الناس بذلك، وجاؤوا بأحمد من السجن وعقدوا مجلسًا مع ابن أبي دؤاد وغيره من علماء الاعتزال، وجلسوا يناقشونه في خلق القرآن، والإمام أحمد يُسقط أقوالهم وحججهم بالنصوص الواردة، ويقول لهم: أعطوني دليلاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، واستمرت المناظرات ثلاثة أيام، والإمام ثابت على الحق، يقولون: ما تقول في القرآن؟، فيقول: كلام الله غير مخلوق.

واستمرت هذه المناظرة العلنية ثلاثة أيام، والإمام ثابت لا يتزعزع، وخصومه من حوله تتساقط شبهم وبدعهم، حتى كان اليوم الرابع، وكان المعتصم قد ضجر من طول المناظرة، وأغراه قاضي المحنة أحمد بن داود، حتى وصل الأمر إلى التهديد بالضرب والجلد والقتل.

فقال الإمام أحمد: يا أمير المؤمنين: إن رسول الله ﷺ قال: (لا يحل دمُ امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله و أني رسول الله إلا بإحدى ثلاث) فبم تستحل دمي و أنا لم آت شيئًا من هذا؟، يا أمير المؤمنين، تذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك، فهدأ المعتصم ولان، فتدخل ابن أبي دؤاد وقال: يا أمير المؤمنين، إن تركته قِيل: إنك تركت مذهب المأمون، أو يقال إنه غلب خليفتين، فهاج المعتصم، وأمر بإعادة الإمام أحمد إلى السجن وجلده حتى يرتد عن رأيه.

وأحضرت السياط، وشُد أحمد على خشبة الجلد حتى خلعت يداه، والجلادون يتناوبون على ضربه، هذا يضرب سوطين، والآخر ثلاثة، وهكذا حتى إذا بلغ سبعة عشر سوطًا، وبعدها قام إليه المعتصم وقال: يا أحمد علام تقتل نفسك؟ و إني والله عليك لشفيق، وجعل عُجَيْفٌ من قادة الترك ينخسه بقائمة سيفه ويقول: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك إمامك الخليفة على رأسك قائم، وقال: بعضهم: يا أمير المؤمنين دمه في عنقي فاقتله، وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين أنت صائم، و أنت في الشمس قائم، وكان ذلك في شهر رمضان والمعتصم يقول: ويحك يا أحمد ما تقول؟ فيجيب الإمام بكل صمود وثبات: أعطوني شيئًا من كتاب الله، أو سنة رسول الله أقول به، فيأمر المعتصم بمواصلة الضرب، ثم قال له المعتصم مرة أخرى: أجبني إلى شيء فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي، ويرفض الإمام عرضه ويمضي في صموده، فأخذوا في ضربه حتى أغمي عليه من شدة الضرب، وتمزق ظهره من لهيب السياط.

بعد هذا الثبات العجيب الذي تعجز عنه الجبال الراسيات، أمر المعتصم بإطلاق سراحه يائسًا منه عاجزًا عن إذلاله، وخرج الإمام أحمد وعاد إلى بيته، بعد ٢٨ شهرًا من الحبس والضرب من سنة ٢١٨هـ حتى سنة ٢٢١هـ

ثم توفي المعتصم، وتولى بعده الواثق، وتوافد عليه علماء السوء يحرضونه على الفتنة، حتى استأنف مسيرتها، وأخذ عهدها مرة أخرى، واستمر حكمه خمس سنوات: وقيل إنه تراجع عن القول بخلق القرآن في آخر عهده، ثم توفي وجاء بعده المتوكل فأعلن السنة، وكتب إلى العلماء في الآفاق بأن يمنع الناس من الخوض في هذه المسألة، والقول بهذه البدعة، وانتصر الحق على الباطل، ولهذا لما قيل للإمام أحمد أيام المحنة: يا أبا عبد الله.. انتصر الباطل على الحق، قال: والله ما انتصر الباطل على الحق.

لقد صمد أحمد في وجه الظلم، وصبر على البلاء، وواجه المحنة بكل إباء.. انتصر بإيمانه وشجاعته، ونصر الحق على الباطل، وكان آية من آيات الصلابة والتحدي.. في وجه دولة بأكملها، وخلافة مترامية الأطراف، رأى أنها على ضلال وخطأ، فلم ينبطح وينتكس ويتراجع، أو يخرس صوته وتضعف همته من الخوف والقلق الذي يجلبه السوط والسيف.

ولكنه كما قيل عنه: أنه بعدما رأى الناس يجيبون للقول بخلق القرآن تحت التهديد والوعيد، وكان من قبل رجلا لينًا، انتفخت أوداجه، واحمرَّت عيناه، وذهب عنه ذلك اللين، وغضب لله عز وجل، وجهر بالحق.. فهل يقتدي علماء الأمة اليوم فيثوروا للحق وتنتفخ له أوداجهم في وجه الباطل كما كان حال الإمام أحمد؟! أم أن كثيرين منهم يصرون بعدما قرؤوا من ثبات أحمد، أن يجعلوا الحكام والسلاطين آلهة يشرعون ويقننون، أو أنبياء يوحى إليهم من قبل السماء؟!

ومن ثم يقدم قولهم على قول القرآن ومن نزل عليه القرآن ﷺ؟! لقد رحل أحمد ورحل الطغاة في زمنه، ولكن.. من بقي منهم إلى اليوم تاجًا يبرق على الرؤوس، وقدوة تحتذى، ومثلا يروى، لقد أصبح الإمام أحمد علمًا من أعلام الإسلام في عصره، وبعد موته حتى يومنا هذا، وكانت خاتمته وجنازته من أيام الإسلام المشهودة، وبقي علمه وفقهه وكتبه ومذهبه حتى يومنا هذا كأنه حي بين أظهرنا.. أما هم فما يذكرهم التاريخ إلا طغاة جبارين قبيحي الوجوه والأفعال.. ختم الله لهم بسوء المنقلب.